

الرؤية المتشائمة

منذ أيام وأنا أناقش نفسي عن أسباب هذه الرؤية المتشائمة التي تجتاحني كما اجتاح التسونامي الجزر الاندونيسية العام الفائت. أتصفح الجرائد اليومية فأراها جميعها تبشر بميلاد عهدٍ جديدٍ من الوحدة الوطنية والازدهار الاقتصادي وقدرة بيروت على الاستفادة من أزمة دبي المالية وقابليتها على أن تغدو مركز استقطاب للرساميل والشركات الاجنبية. إذن لماذا كل هذا الاحباط ولماذا هذه الرؤية التشاؤمية؟ فسألت نفسي عن الواقع الادبي والتربوي والثقافي في لبنان والعالم العربي سألت نفسي عن تباهي دول المنطقة بمصادرة عقول ابنائها وحررياتهم. واقتارها بدكتاتورياتها وظلامياتها. ضحكت نفسي مني وقالت: أليس لحوم الحيوانات المجتره هي وحدها اللحوم الصالحة للأكل لماذا تستغرب إذن عملية الإجتراح الثقافي والتربوي الموجود في ديارنا؟ كيف نهيء مائدةً لذيذةً للسلطين والمتنفذين اذا امتنعنا عن اجترار ثقافتنا؟ هل تريدنا لا سمح الله أن نكون ابداعيين؟ ألسنت تعلم أن ثقافتنا علمتنا أن كل بدعة ضلال وكل ضلال في نار جهنم؟ ألسنت تعلم أن الابداع هو مشاركة الخالق في عملية الخلق وهذا هو الشرك بعينه. عجباً منك يا رجل حتى أنك تتجر أعلى مناقشة نفسك ومحاورتها. ألسنت تعلم أن الحقائق أزلية سرمدية غير قابلةٍ للتطور بتطور أساليب العيش الشكلية. ألسنت تعلم أن الكترونات الذرات هي وحدها التي تتحرك وأن أجساد الناس هي وحدها التي تتبدل. وأن مناخات الارض فقط هي التي يعتمورها التغيير. أما الحقائق فهي مقدسة لأنها هبطت من فوق الازلي الذي هو خارج اطار الزمان والمكان. وبما أن الازل ليس فرداً ليكلمنا ولا انساناً لنراه بعيوننا ونسمع صوته بأذاننا كان الحاكم او المتسلط هو الواسطة التي يتكلم فيها الازل بلسانه. ولذلك يجب أن نمتنع جميعنا عن الكلام ونترك عملية الكلام لهذا السلطان. ويجب أن نمتنع عن التفكير ونترك شؤون التفكير لهذا السلطان. ألا يكفي أنه لم يستنزف لنا طاقة عقولنا. صحيح أنه منعنا من الكلام ولكنه أباح لنا الهذي والثرثرة. ومنعنا من الابداع ولكنه أباح لنا الاجترار. ومنعنا من التفكير ولكنه أباح لنا الذهول

والاحلام والازدواجية في الشخصية والتحشيش الخيالي. أليس هذا نعمة تستحق الحمد والشكر؟

تجول في أرقى الدول والمجتمعات هل ترى أناساً يملكون شخصيات مزدوجة مثلنا؟ أليس هذا علامة غنى ورفاهية. هل ترى أناساً محرومين مكبوتين وبنفس الوقت لا يرضون بأقل من خليلات حوريات مطهرات من الطمث يضاجعوه ليل نهار في عالم الامنيات؟ هل ترى أناساً حفاةً وبنفس الوقت لا يرضون بأقل من اخذية مرصعة بالجواهر واليواقيت في عالم التحشيش الخيالي. هل ترى أناساً مهانين محقرين ولكنهم في بيوتهم أسياداً مستبدين اوامرهم غير قابلة للنقاش الا عندنا؟ هل ترى أناساً لا يقرأون وهم مستعدون أن يناقشوا في سياسة الدول الكبرى ومخططات الماسونية العالمية يرافقها من عجائب ظهورات وغرائب احداث. ثم هناك شيء يأخذني العجب منك ايها الرجل أنت ممن انطلت عليهم الاكاذيب وصدقوا أن الديموقراطية هي حكم الشعب لنفسه بواسطة الانتخاب الحر وتداول السلطة بين موالة ومعارضة. هل تظن أن الديكتاتوريات التي بنت سلطتها على الدبابة والمدفع والاستخبارات هي أشد خطراً على الحريات والعقول المبدعة من الشركات المتعددة الجنسيات والتي لا أحد يعرف اصحابها ولا أهدافها ولا مراميها. هل تظن أن الرجل الذي يكدح طول النهار ثم يضرب زوجته في المساء أشد خطراً على المرأة من الرجل الذي يرفض كونه رجلاً ويريد أن يتحول امرأة مغتصباً بذلك حق المرأة في أنوثتها. هل تشير المخدرات باسم الحرية وحقوق الانسان أقل خطراً من اجترار الافكار والثقافات؟ أليست النتائج واحدة وان تعددت الطرق واختلفت الاساليب؟ أليس الانسان هو الضحية في جميع الحالات وان اختلفت الممارسات. إنه الانسان الكائن العاقل الاجتماعي فلنفسح له المجال ونهئ له الفرص ليحقق انسانيته بحقه في التفكير والتعبير والمعتقد والعلم والعمل والعيش في مجتمع عادل منظم حسب قوانين القول وليس حسب افكار غيبية اسطورية استبدادية دائماً يدعي اصحابها أنها أنزلت من فوق من عالم ما وراء الطبيعة ولا يحق لأحد مناقشتها.

انه الانسان الكائن الالهي الذي وهبه الله نفساً ناطقة عاقلة تستطيع وحدها ادراك الحقائق الكلية المجردة والتواصل مع اصلها الذي فاضت عنه. ألم يقل الرسول العربي الكريم أن أول ما خلق الله العقل وجعله أمره وإرادته وكلمته وسراطه المستقيم وضابط نظام هذا الوجود بقوانين صارمة كل سبب فيها يتبع سببه. ألم يقل العهد القديم أن أول ما ظهر في اليوم الاول هو النور ومن النور فاض كل شيء. ألم يقل رجال العرفان أن الله أظهر من نوره الشقشقاني صورة حية كاملة فاعلة سماها العقل وجعلها هيولن كل شيء وبها تكوينهم ثم تجسد العقل كلمة والكلمة اصبحت انساناً من لحم ودم. ألم نخبرنا التجارب العلمية الحديثة أن كل خلية من خلايا الـDNA يوجد في داخلها تعليمات لو كتبت على طريقتنا في الكتابة لمألت ألف كتاب على كتاب من ستمائة صفحة. ألم تقل لنا تجارب العلم الحديثة ايضاً أنه في داخل كل عين عن عيوب الانسان في كل ثانية تحصل مئة مليون لا عملية حسابية.

هذا الانسان المعجزة الذي هو جوهر هذا الوجود وغايته وسدرة منتهاه هل يجوز لنا في هذا الشرق العتيق أن نصادر له حريته وعقله وحقه في تحقيق انسانيته عبر اكتشافه لامكانياته المخترنة في داخل جوهره وحقه في تطوير نفسه عبر العلم والعمل والتواصل مع ربه عبر التشبه بربه في العفاف والشرف والكرم والعطاء والخلق والابداع. هل يجوز تحويل هذا الانسان المعجزة الى غلام عند أمير او مخبر عند ديكتاتور او كتلة لحم متحركة لا ارادة لها ولا عقل ولا غاية لوجودها ولا هدف.

ثم نعود لندخل دور عبادتنا ونقول أن الله خلق الانسان على صورته وأنه أودع فيه سره وجعله خليفته على هذه الارض. ثم نعود لنقول أن الانسان بالكبت والحرمان والابتعاد عن زينة الحياة الدنيا وزخاريفها يتجلى الله على عرش قلبه فيرى من السعادة ما لا عين رأت وبسمع من الانعام ما لا أذن سمعت ويتذوق من اللذائذ ما لا فم تذوق.

كمال يوسف سري الدين